أسير ومسيرة
لميس عيساوي

أسير في عينيها

لميس عيساوي

لميس عيساوي

نوع العمل : قصه

الكاتب : لميس عيساوي

تصميم الغلاف : المشرقة

تعبئة وتنسيق : مروه سعيد

هذا العمل تم تحت اشراف فريق

كيان اللا رواية للنشر الاليكتروني

لينك الجروب

جروب اللا رواية

لينك البيدج

اللا رواية للنشر الالكتروني

إن تم تحميل هذا العمل من موقع آخر أو مكان آخر فيعد إنتهاكا لحقوقنا وسرقة أعمالنا وسرقة حق المؤلف

إن شخصيات و أحداث هاته القصة من وحي الخيال لكن هذا لا يُنقص شيئا لكون بعض الأحداث المذكورة حصلت فعلا على أرض الواقع قبل عقود و بفضلها نحن الآن نتنفس عطر الحرية.

****

"إهداء عام"

أُهـــدي هاتـــه القصـــة الـــى كـــل شـــهيد مـــات لتحيا أرضه.

****

"إهداء خاص"

الـــى زوجـــة عمـــي "مباركـــة " التـــي فارقتنـــا منـــذ أســـابيع قليلـــة ، تغمـــدك الـــرحمن فـــي قبرك يا غاليتي و ادخلك فسيح الجنان.

****

بعد ما حلّ بفلسطين هذا العام و ما شهدته من دمار قاسي ، نعود الى شمال افريقيا لنتذكر بعض ما عانته الجزائر في حقبة الإستعمار الفرنسي و نقص عليكم حكاية الفتاة مباركة بنت حسين.

في قلب الجزائر العريقة و في إحدى أريافها الغريقة عاشت هناك فتاة صغيرة تدعى مباركة ، كانت مباركة تبلغ السادسة من العمر و تمتلك أخا واحِدًا يُدعى الحملاوي و الذي كان يكبرها بأربعة عشر سنة ، كان الحملاوي هو آخر من تبقى لمباركة من عائلتها بعد ان استشهد والديها و اخاها اثر عملية مداهمة استعمارية في بيتهم الريفي

الواقـــع بـــدوار ولاد عشـــاش قبـــل عـــدة سـنوات ، و بعـد هـذا اضـحى الحمـلاوي الأخ و الأب و الأم و المعلم في آن واحد.

دوار ولاد عشاش ، ربيع 1936

تجلـــس مباركـــة و اخوهـــا الحمـــلاوي يســـتظلان تحـــت احـــدى الأشـــجار الموجـــودة بقـــرب منزلهمـــا بريـــف ولاد عشـــاش ، يقـــوم الحمـــلاوي بإعطـــاء دفتـــر الحســـاب لأختـــه كـــي يختبـــر حفظهـــا للأرقـــام ، يقـــول الحمـــلاوي موجها كلامه لمباركة :

-هيـــا عـــدي الأرقـــام مـــن واحـــد الـــى عشـــرة "احسبي منا لعشرة"

تُغلـق مباركـة عينيهـا ثـم تـردد ببطـئ الأعـداد بتسلسل :

-واحد ، اثنان ، ثلاثة

فجأة تنقطع مباركة عن العد بعد ان سمعت وشوشات من خلفها ، تستدير الى الخلف لترى مجموعة من ضُبّاط الإحتلال يستريحون أمام شجرة بالقرب منهم

مباركة: أخي من هؤلاء، و عن ماذا يتحدثون

كان الحملاوي يستمع الى الضباط من بعيد الذين كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية عن مشروع "Blum-Viollette" ينتبه الحملاوي الى اخته ثم يقول :

-لا تأبهي لهم يا أختي فهم أناس ساذجون

مباركة بحماس :

-أخي، هل تفقه لغتهم

الحملاوي: نعم

مباركة: انت مثقف حقًا يا أخي ، أتمنى أن أصبح مثلك عندما أكبر

يبتسم الحملاوي لكلامها ثم يكمل:

-هل بإمكانك تعليمي إياها

-لا ، يكفي أن تتعلمي اللغة العربية

يربت على كتفها ثم يقول بأسى :

-تعلمت أنا هاته اللغة دون رغبة و بصورة شبه اجبارية ، لو مهما كنت جيدا فيها هي تبقى لغة المحتل الأجنبي "الڤاوري" الذي اغتصب ارضنا رغمًا عنّا

يصمت قليلا ثم يردف:

-و لهـــذا الســـبب لا أريـــد منـــك ان تتعلمـــي هاته اللغة الخبيثة كأهلها

يـــأتي ناحيتـــه الضـــباط الإثنـــان بعـــد ان ســـمعاه يتحـــدث عـــن اللغـــة الفرنســـية باحتقـــار يمســـكه أحـــدهم بينمـــا يقـــوم الآخـــر بإبعـــاد مباركة عنها و مباركة تصرخ:

-أخي

واضـــعا الزنـــاد علـــى رأســـه قـــائلا بشـــيء مـــن الغضب و بلغته تلك:

-كيف تتجرأ أن تصفنا بأبشع الألفاظ

-Comment oses-tu nou décrire dans les termes les plus vils

لكــن الحمــلاوي لــم ينــبس ببنــت شــفه ، ظــلّ يُحــدق بــذلك الضــابط فقــط دون اي رد يقــول الضابط الآخر:

-دعه يا جان

-Laisse-le, jan

ليقول بغضب:

-هيــا، اســحب كلامــك علــى الفــور، قــل فرنســا هي أمنا ولغتهم هي لغتنا

-Allez, retire immédiatement tes mots, La France est notre mère et leur langue est notre langue

صمت الحملاوي لبُرهة ثم يقول بكل فخر:

-الجزائر هي أمنا، لغتها هي لغتنا

-L'Algérie est notre mère, sa langue est notre langue

يصرخ الضابط في وجه صديقه قائلا:

-خذ الفتاة من هنا

-Prends la fille d'ici

يقوم الضابط الآخر بإبعاد مباركة الصغيرة من هناك و هي تصرخ بشدة تحاول مقاومته ، للحظة دوى صوت الرصاصة في المكان و سلب هدوء الدُوار ليسقط الحملاوي امام أنظارها شهيدا

تصرخ مباركة بأعلى صوت:

-خويا الحملاوي

و تنهمر الدموع من وجنتيها ، تلتفت بغضب نحو الضابط الذي اطلق الرصاصة و ترمقه بنظرات حادة ثاقبة تحاول رسخ صورته في ذاكرتها و استجماع كل سمة مميزة فيه قد تُذكرها به ، يلتفت الجميع الى الخلف و اذا بأهل الدُوار قادمين من بعيد ، يرتعب الضُباط من نظراتهم النامّة عن غضب ليغادروا المكان على الفور.

بعد استشهاد الحملاوي تم نقل مباركة الى احدى المدارس الداخلية الموجودة بمدينة قسنطينة و هكذا كبرت مباركة بتلك المدرسة بعيدة عن دوار اولاد عشاش تستأنس بذكرياتها و صورة قاتل أخيها اسيرة في مُقلتيها ، رغم السنوات التي

مـــرّت عليهـــا ظلّـــت متـــذكرة اســـم جـــان و وحمـــة ســـاعده الأيســـر و فـــي ســـنة 1955 و تزامنـــا مـــع استشـــهاد ديـــدوش مـــراد قـــررت مـــع مجموعـــة مـــن الطالبـــات الإلتحـــاق بصـــفوف الثـــورة لوضـــع بصـــمة فدائيـــة و لـــو بالشيء القليل.

جويلية 1956

تتجـــول مباركـــة مـــع صـــديقتها عقيلـــة فـــي شارع فرنسا المتواجد بقسنطينة تتحدثان.

عقيلـــة: يُقـــال أن الهجومـــات و التفجيـــرات التـــي نفّـــذها الثـــوار بالعاصـــمة قـــد لقيـــت نتـــائج إيجابية

مباركـــة: نعـــم و يُقـــال أنـــه سيحصـــل الأمـــر نفسه هنا بقسنطينة قريبا

للحظـــة تلمـــح مباركـــة رجـــلا فـــي الخمســـينيات مـــن العمـــر يمتلـــك وحمـــة علـــى ســـاعد يـــده اليُســـرى ، تشـــبه تمامـــا وحمـــة ســـاعد يـــد قاتـــل أخيها الحملاوي ، تقول لصديقتها عقيلة:

-انتظري قليلا

ثـــم تقـــوم بتتبعـــه الـــى ان دخـــل الـــى احـــدى المقاهي هناك ،تتحدث في نفسها:

-إنه هو أنا واثقة

تقترب منها عقيلة ثم تهمس لها:

-مـــا بـــك، مـــن يكـــون هـــذا الرجـــل، و لِـــم تتبعينه

" وشـــبيك ، شـــكون هـــذا الراجـــل، و عـــلاه راكي تبعي فيه "

تعتـــري تكشـــيرة وجـــه مباركـــة ثـــم تقـــول لصديقتها:

-هـذا الرجـل يمتلـك وحمـة تشـبه وحمـة قاتـل أخي

تصمت لبرهة ثم تقول:

-عليّ ان أتأكد منه ، سأتبعه الى المقهى

تمسكها صديقتها عقيلة قائلة:

-مـــاذا دهـــاك، هـــذا المقهـــى لـــيس لأمثالنـــا سيمنعونك من الدخول

تتوقف مباركة في مكانها ثم تقول:

-معك حق لقد نسيت ذلك ، عليّ ان أُفكر بطريقة أتسلل بها الى ذلك المقهى الفرنسي

عقيلة: الحل الوحيد هو ان تنزعي الملاية و تغيري من مظهرك قليلا ، تماما كما فعلنّ النساء في العاصمة أثناء عمليات التفجير.

في تلك الليلة قامت مباركة الليل و صلّت ركعتين و دعت الله ان يرحم اخاها الحملاوي و ان يُساعدها لتنتقم لروحه التي أُزهقت على يد ذلك السفاح و طلبت منه أن يغفر لها ما ستفعله و لنزعها الحجاب.

فـــي الغـــد قامـــت مباركـــة بســـدل شـــعرها علـــى طريقـــة معاصـــرة و ارتـــدت احـــدى الفســـاتين القصـــيرة التـــي كانـــت قـــد اســـتعارتها مـــن احـــد الصديقات و توجهت الى ذلك المقهى.

المقهى

تجلـــس مباركـــة فـــي تلـــك المقهـــى مختلطـــة مـــع مجموعـــــة مـــــن المســـــتوطنين الفرنســـــيين بعـــدها بلحظـــات يـــدخل ذلـــك الرجـــل و يجلـــس علـــى احـــدى الكراســـي الموضـــوعة بقربهـــا ثـــم يطلـــب مـــن النـــادل فنجـــان قهـــوة ، ترمقـــه مباركـــة بنظـــرات حـــادة نامّـــة عـــن حقـــد و كراهيـــة بينمـــا يُبادلهـــا هـــو نظـــرات الإعجـــاب و الغزل ، يبادرها قائلا:

-أعـذريني يـا انسـة ، هـل تتـرددين علـى هـذا المقهى عادة

-Excusez-moi, mademoiselle,

fréquentez-vous habituellement ce café

-نعم و لكن ليس دائما

-Oui, mais pas toujours

يبتسـم لهـا و تبادلـه هـي بابتسـامة بـاردة تقول له:

-وأنت

- et vous

يُجيبها:

-أقضـــي معظـــم وقتـــي هنـــا، إنـــه مكـــاني المفضل

-Je passe la plupart de mon temps ici, c'est mon endroit préféré

تمرر يدها اليه تصافحه قائلة:

-انا ماري

-je m'appelle Marie

يبادلها مصافحة و يقول:

-و أنا جان

-Et je suis jan

تتحدث مباركة في نفسها:

-عثـــرت عليـــك أخيـــرا هـــه ســـبحان الله كـــم ان العـــالم قريـــة صـــغيرة "ســـبحان الله الـــدنيا وش صـــغيرة" مـــن قـــال أننـــي بعـــد عشـــرين سنة سألتقي بقاتل أخي هنا بقسنطينة

تُغـــادر المقهـــى مُتجهـــة الـــى منزلهـــا و فـــي الطريـــق الـــى هنـــاك تلتقـــي باحـــدى الشـــوارع الضـــيقة فتـــاة ذات شـــعر أصـــفر جالســـة علـــى الـــدرج تحمـــل حقيبـــة بيـــدها و تتـــألم مـــن وجـــع تقتـــرب منهـــا لـــتلمح شـــيئا داخـــل حقيبـــة تلـــك الفتاة ، تُربت على كتفها و تقول:

-ما بك يا أختاه "وشبيك ختي "

تنظـــر الفتـــاة الـــى مباركـــة باســـتغراب مظهرهـــا و هنـــدامها لا يـــوحي بأنهـــا فتـــاة جزائرية تقول مباركة:

-لا تقلقـــي أنـــا جزائريـــة و مناضـــلة مثلـــي مثلك

تقول الشابة:

-ما ادراك بأنني جزائرية

مباركـــة: لاحظـــت آلـــة ســـوداء فـــي حقيبتـــك أراهـــن أن تلـــك الآلـــة قنبلـــة ستضـــعينها فـــي مكان ما ، اليس كذلك

-نعـــم ، شـــكك فـــي محلـــه ، لقـــد كُلِّفنـــا اليـــوم بوضـــع هاتـــه القنابـــل بـــبعض الحانـــات و المقـــاهي و المطـــاعم الموجـــودة بشـــارع فرنســـا ، لقـــد أُصـــبت بمغـــص شـــديد و لا أقـــدر علـــى المشـــي ، أخشـــى إن أتممـــت علـــى هاتـــه الحـــال ان يُكشـــف أمـــري ، هـــل يمكنـــك أخـــذ هاته القنبلة عِوضًا عني

تبتسم مباركة ثم تقول بكل فخر:

-نعم أكيد ، انا روحي فداء للجزائر و للثورة ، فقط أخبريني اين تريدين مني أن أضعها ؟

تقول الفتاة:

-لقد كُلفت صديقتي بوضع قنبلة في احدى الفنادق و كُلف السيد محمد الصالح بوضع أخرى في إحدى الحانات هناك و سآخذ انا هاته الى مطعم هناك

تأخذ مباركة الحقيبة او القنبلة ثم تقول للفتاة:

-لا تقلقي اعرف تماما اين سأضعها عودي الى المنزل مطمئنة البال، ثم تعود بها الى ذلك المقهى

تدخل المقهى و هي على امل ان يكون قاتل اخيها لا يزال هناك و فعلا كان في محله يقرأ صحيفة الأخبار ، تجلس بمقعد بعيد عنه ثم تُسلل الحقيبة خفية تحت احدى الطاولات و تُشغل المؤقت بعدها بلحظات تُغادر المقهى و تبتعد من هناك مسافة تحميها من الإنفجار ، تُراقب المقهى من بعيد ثم تُغمض عينيها و تسرح في الخيال و هي تستعيد بذاكرتها تلك الأيام التي كان فيها أخوها الحملاوي يُعلمها الحساب ، تتخيل نفسها جالسة

قـــرب تلـــك الأشـــجار بـــدوار ولاد عشـــاش و أخوها الحملاوي يُحفّظها الأرقام ، تعُد:

-واحـــد، إثنـــان، ثلاثـــة، أربعـــة، خمســـة، ســـتة سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة

و تنفجـــر القنبلـــة معلنـــة مـــوت قاتـــل أخيهـــا بعـــد ان كـــان أســـير عينيهـــا و ذاكرتهـــا لســـنين انتقـــال فـــتح لهـــا طريقـــا للإنتقـــام هاتـــه قصـــة مباركة بنت حسين حافظة الأرقام.

****

أسير في عينيها

بعد ما حلّ بفلسطين هذا العام و ما شهدته من دمار قاسي .
نعود الى شمال افريقيا لنتذكر بعض ما عانته الجزائر في حقبة الإستعمار الفرنسي ، ونقص عليكم حكاية الفتاة مباركة بنت حسين .

لميس عيساوي

المدوية
المشرقة